

صاحبِ اِجَانِ

١

أنكر شباب قریش من صاحب الحان إعراضه عنهم ، وما ظهر من انقباض وجهة وتقطب جبينه ، وما أحسوا وراء ذلك من فتور النفس ، وجمود القلب ، وشروء الحاطر ، واشتغال البال .

وكان هؤلاء الفتيان المترقون من شباب قریش قد تعودوا من صديقهم هذا الرومی نشاطاً للشراب إذا نشطوا له ، وإقبالا على اللهو إذا أقبلوا عليه ، ومشاركة في اللذة إذا أخذوا فيها ، قد مُحيت بينهم وبينه الفروق ، ورفعت بينهم وبينه الحجب ، وأصبحت الأمور بينهم وبينه ميسرة هينة ، تجرى على المودة والإلف ، وعلى السداجة والإسماح ، كما تجرى بينهم وبين أنفسهم ، أو خيراً مما تجرى بينهم وبين أنفسهم . يقبلون عليه مصباحين ، ويقبلون عليه مُمسين ، ويقبلون عليه في أى ساعة من ساعات النهار والليل ، فلا يرون منه إلا نشاطاً وانبساطاً ، وإلا إقبالا عليهم وإيناساً لهم . فإذا أخذوا في شراهم ، وأقبلوا على لذاتهم ، واستمعوا لأولئك المغنيات الروميات اللاتي كنّ يفتنهم بالصوت واللحظ ، وبغير الصوت واللحظ من أسباب الفتنة وألوان الإغراء ، أقبل الحمارُ الرومی معهم على هذا كله ، لا إقبال التاجر الذي يُغرى بتجارته ويرغب فيها ، بل إقبال المخلص في حب اللهو ، المسرف في إثارة اللذة ، المتهالك على أن يأخذ نصيبه من الدنيا قبل أن يدفعه الموت إلى تلك الطريق التي

يعرف أولها ثم يجهل من أمرها بعد ذلك كل شيء .
وكانت الكلفة قد ارتفعت بين هذا الرومي وبين زواره من فتيان
قريش هؤلاء ، فكانوا يشربون ويطربون ، ويؤدون إليه ثمن لذاتهم
إن حضرهم المال ، فإذا لم يحضرهم لم يجدوا بذلك بأساً ، ولم يمنعهم
ضيق ذات أيديهم أن يمشوا فيما يجنون من عبث وطو . ولم يُظهر
لهم صديقتهم الروميّ تجهماً ولا تلوّظاً ، ولم يبطن عليهم في شيء
مما كانوا يريدون ، لا لأنه كان واثقاً بأن حقوقه ستؤدى إليه كاملة
فحسب ، بل لأنه كان قد أحب هؤلاء الفتيان وأنس إليهم . ولولا
بقية من أصله الرومي كانت تضبط أمره وترده إلى الصواب والحزم ،
لا ندفع مع هذا الحب إلى غير حدّ ، ولألغى بينه وبين هؤلاء الفتيان
من أشرف قريش كل حساب .

فلما أقبلوا عليه من ليلتهم تلك لم ينشط لما كانوا ينشطون له ،
ولم يلقهم بما تعودوا أن يلقاهم به من البشر وطلاقة الوجه ، وإنما
استقبلهم في شيء من الفتور لم يلبثوا أن أحسوه وشعروا به ، ولكنهم
لم يُظهروا مما أحسوا شيئاً . ونحلى الروميّ بينهم وبين ما أحبوا من شراب
ولذة ، ومن مجون وعبث ، واندفعت المغنيات الثلاث يرددن عليهم
أصواتهن الغريبة العذبة ، ويوقعن لهم ألحانهن الشجية الحلوة . وجعلوا
يسمعون ويعجبون ، ويفتنون ولا يشهمون ، وجعلوا يستعينون على هذا
كله بالإغراق في الشراب ، والاستباق إلى الإكثار منه ، مسرفين
في المزاح ، متهاكين على الدعابة ، يقول بعضهم لبعض : لن يتأخر
قدوم العير بما تقدّم إليها الخمار في أن تحمل إليه من نبيذ الشام

وفلسطين ، فلا ينبغي أن نتصرف عنه الليلة حتى نستنفد ما عنده من نبيذ قديم . وكانوا يلمحون له بدعابتهم ، ويلحون عليه بمزاحهم ، ويحرضونه على مشاركتهم ، فلا يجدون منه إصغاء إليهم ولا انتباهاً لهم ، فيمضون في أمرهم متكلفين أن يلقوا إعراضاً بإعراض ، وجفاء بجفاء . ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا كأن شيئاً ينقصهم ، وكان اللهو لا يستقيم لهم ، وكان نفوسهم لا تستجيب لهذه اللذات التي تدعوها فتلح في الدعاء . ولا يشكون في أن انقباض هذا الرجل الروي عما ينسبطون له هو مصدر ما يجدون من حرج وضيق ، ومبعث هذا الفتور الذي أخذ يسعى إليهم شيئاً فشيئاً ، فيلهيهم عن الألحان وأصوات الغناء ، ويكاد يصرفهم عما بين أيديهم من هذه الأقداح التي لم تتعود الانتظار .

هنالك يُقبلون على صديقهم الروي لاثمين أول الأمر ، ثم ملحين في اللوم . فإذا لم يجدوا منه عناية بهم أو استماعاً لهم رفقوا له ورفقوا به ، وتحولوا إليه عن شرايهم وغنائهم ، وجعلوا يسألونه سؤال الصديق عما عرض له من أمر ، وما نزل به من خطب ، وما ألمّ به من مكروه . ويبلغ رفقهم هذا الخلو قلب الروي فيتأثر به ويلين له ، ويتصل بين هؤلاء الفتيان من أشرف قريش وسادتها وبين هذا الخمار الروي حديث غريب لا ينقضى إلا وقد كاد الليل ينجلي عما كان قد غمر من الأودية والبطاح .

قال الخمار الرومي لأصدقائه من شباب قريش : « عزيز علي أن ألقاكم بما لقيتكم به من الفتور ، وقد عودتكم أن أكون لكم مكرماً ، وبكم حفيماً . وعزيز علي أن أقصر عما تقدمون عليه من هذه اللذات التي كنت أسابقكم إليها فأسبقكم ، وأنازعكم الاستمتاع بها فأكون أوفرهم منه حظاً وأعظمكم منه نصيباً . وعزيز علي أن يُعديكم هذه الفتور ويبلغكم هذا القصور ، فتُصدّون عما تحبون ، وتُصرفون عما تألفون . ولكن ثقوا أني لم أقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفعت إليه مكرهاً عليه . »

قال صفوان بن أمية : « فإنما ما نشكّ في أنك لم تلقنا بهذا الإعراض والفتور إلا وقد عرض لك من الأمر ما اضطرك إلى ذلك . وقد عودناك أن نقضى إليك بأسرارنا وجليّة أمورنا ، لا نخفي عليك منها شيئاً . فأفض إلينا بدخيلة نفسك وجليّة أمرك ! فلعلنا أن نكون عند ما تحب من المعونة لك والترفيه عليك . »

قال صاحب الحان : « فإنني أخشى أشد الخشية ألا تملكوا لي من هذا الأمر الطارى شيئاً . »

قال صفوان : « إنك ضيفنا وجارنا وصديقنا ، وصاحب لذتنا وشريكنا في هذه اللذة . فلسنا لقريش إذاً إقّ بجلنا عليك بالمعونة ، أو آثرنا أنفسنا بالأمن والراحة والتعيم من دونك . وإنك لتعرف من

قريش قراها للضيف ، ووفاءها للجار ، وبرها بالصديق ، وأداءها للحقوق .
قال صاحب الحان : « فإن هذا الأمر الطارى ليس مما تظنون
فى شىء ، وإنى لا أدرى كيف أباديكم به وأتحدث إليكم فيه ،
ولو أن الذى عرض لى كان مما تعودتم أن تردوه عن الضيف والجار
والصديق لما أبطأت فى إنبائكم به وإظهاركم عليه . ولكنه لون آخر
من الأمر لم تتعودوا أن تروه ، وضرب آخر من الخطب لم تتعودوا
أن تشهدوه . وما أدرى أتفهمون عنى إن تحدثت إليكم بما عرض لى !
وما أدرى أترضون إن فهمتم ما ألقى إليكم من الحديث أم تسخطون !
فإنه أمر غريب حقاً ! غريب حقاً ! » . ثم أطرق الروى وترك
هؤلاء الفتيان من شباب قريش وقد أخذهم شىء يسير من الوجوم
بهذا الحديث الغريب ، وجعلوا يتقارضون فيما بينهم ألاحظاً قصاراً
سراعاً . ثم رفع الروى إليهم رأسه ، فلما رأهم على هذه الحال ابتسم
لهم رقيقاً بهم ، وقال فى صوت هادى بعيد : « ما أحب لكم أن
تصرفوا عن أمر لذنكم إلى هذا الأمر الذى ما أراه يعينكم من قريب
أو بعيد ، فعودوا إلى ما كنتم فيه موفورين . ولو استطعت لشاركتكم
فى اللهو ، ولأعتكم عليه ، ولكن نفسى محزونة منذ الليلة حقاً ! » .
قال صفوان : « فإننا لن نتحول عنك إلى لذتنا ، ولن ننصرف
عنك إلى بيوتنا حتى نعلم علمك ، وحتى نرى أقادرون نحن على أن
نعينك أم عاجزون عن أن نبلغ من ذلك بعض ما نريد . فاقصص
علينا أمرك ولا تبطى ! فإنك قد شوقتنا إلى حديثك هذا الذى
تخفيه فتمعن فى إخفائه وتلتوى به علينا أشد الالتواء . »

قال الروى : « إني لا أخفى عليكم شيئاً ، ولا أتوى عليكم بشيء ، ولكنى أدير هذا الأمر في نفسى ولا أعرف كيف أباديكم به » .
قال صفوان وهو يتكلف الضحك : « فبادنا به كيف شئت وعلى أى وجه أحببت ! فإني أخشى إن طال بك هذا الصمت وألح عليك هذا الالتواء أن نشقّ عن صدرك لئرى ما يضطرب فيه من عاطفة ، ونشجّ رأسك لنظهر على ما تدبر فيه من رأى وما تجيل فيه من حديث » .

قال الروى وهو يتسم : « ما أوفاكم إذاً للجار ، وأرعاكم إذاً للصديق ! » .

قال صفوان : « فإنك مظهرنا على أمرك طائعاً أو كارهاً ! فقد طال منك الصمت ، وطال منا الإلحاح ، وقد تقدم الليل ، وإنا خليقون أن نبقى حولك حتى يدركنا الصبح نسألك ونلح عليك ، فأرح نفسك وأرحنا من السؤال والإلحاح » .

قال الروى وهو يظهر تردداً شديداً ، ويأخذ نفسه بالعنف لأنه يُقدم على أمر عظيم : « فإن الأمر الذى أهنى لا يتصل بى وإنما يتصل بكم » .

قال صفوان : « فذلك أجلى أن تبادينا به وتظهرنا عليه ! » .
قال الروى : « فإنه لا يتصل بحياتكم حين تأوون إلى بيوتكم ، أو تهرعون إلى هذا الخانوت أو تضطربون فى الأرض ، وإنما يتصل بالهتكم » .
ولم يكدهؤلاء الفتيان من قريش يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل ، ثم سكت عنهم الضحك بعد

حين ، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، في شيء غريب من الفرح والمرح ، وفي إشارة إلى الغلام أن يملأ لهم أقداحهم . ثم نظر صفوان إلى صديقه الروي نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق وقال : « قد كنا نحسب أن التفكير في الآلهة والحديث عنهم أمر مقصور على نفر من قريش تقدمت بهم السن وتقلبت عليهم الحياة ، وفرغوا لهذا العبث ، فجعلوا يخوضون فيما ليس للناس أن يخوضوا فيه . ولكن الأمر قد تجاوز هؤلاء الشيوخ من قريش إلى جيراننا من الروم . أو مستك العلوي إذا ؟ أو جعلت تصبو إلى ما يصبو إليه هؤلاء النفر من شيوخنا ، وتحرص على أن تمتاز بما يمتازون به من التحرج والتكلف ، وإتفاق الجهد فيما لا ينبغي أن ينفق فيه الجهد ؟ ! لقد جفّت حلوقنا يا غلام ، فأسرع إلى هذه الأقداح فاملأها ، وأسرع إلى مولاك بشيء من شراب ، فما نرى إلا أن نفسه قد ظممت ، وما نرى إلا أن ظمأ نفسه قد اضطرها إلى هذا الحديث » .

قال الروي : « أما إنك قد قلت الحق وأنت لا تدرى ! فإن نفسى لظمئة ، وإن ظمأها لأشدّ مما تظن » .

قال صفوان : « تظماً وعنتك أكرم ما جادت به بيسان من نبيذ ! » .
قال الروي : « ما صدفت نفسى قط عن الخمر كما تصدف عنها الآن . إني لشديد الظمأ ولكن إلى شيء آخر ما أرى أنكم تفقهونه أو تفطنون له » .

قال صفوان وهو مغرق في الضحك : « إنك لظمىء إلى ما كانت

تظماً إليه نفس زيد بن عمرو! فقد طلبته جاهدة فلم تظفر به ، ولم ترو ظمأها باليقين ، وإنما روتها بهذا الدم الزكى الذى لم نثار له بعد ، والذى لا بد من الثأر له . وإنك لظمىء إلى ما كانت تظماً له نفس ورقة بن نوفل وعمان بن الحويرث ! فإن ورقة بن نوفل ليقيم منك غير بعيد فتحول إليه واستمع له ! فقد يروى نفسك بما وعى من علم النصارى ، وما حفظ من سخف الروم . ولكن لا تنس أن تخلى بيننا وبين ما بقى لك من خمر ، وأن تحكنا فيما ستقدم عليك به العير بعد أيام . ثم تضاحك القوم ورفعوا الأقداح إلى أفواههم ، ثم ردوها ولم يذروا فيها شيئاً .

قال الرومى : « فأما وأنتم تفقهون أمر هؤلاء النفر من قريش ، فما أشك فى أنكم ستفهمون عنى إن حدثتكم بما يضطرب فى نفسى من الأمر . ولقد أسأت بكم الظن فعذرة إليكم . لقد رأيتم لا تحفلون إلا بما يحفل به أتراككم من اللهو ، ولا تقبلون إلا على ما يقبل عليه لداتكم من اللذة والنعيم » .

قال صفوان : « فإن لنا على ذلك عقولا تستطيع أن ترقى إلى حكمتك العليا . ولكن ما رأيك فى أنها زاهدة فى هذه الحكمة ، راغبة عنها ! ! فإننا لم نأتك لتحدث إلينا عن الآلهة ، وما ينبغى لغير قريش أن يتحدث عن آلهة قريش . ولقد أطلت فينا المقام ، فكنت خليقاً أن تعرف من أمرنا أكثر مما عرفت . وما نظنك إلا أدركت شيئاً مما لى زيد بن عمرو ، وقد كان أوسطنا نسباً ، وأرفعنا حسباً ! فخذ فى حديث آخر غير حديث الآلهة . فما كنا لنكره ذلك من شيخ

قرشى ثم نرضاه من روى غريب أقبل علينا ليسقينا الخمر ويُسْمَعنا الغناء .

قال الروي وقد ظهر عليه بعض الحزن : « ألم أقل لكم إني كنت مشفقاً أن يسوءكم حديثي ، وإني كنت راغباً عن أن أؤذيكُم ! » .
قال فتى من القوم : « فلأنك لم تؤذنا وإن حديثك لم يسؤنا ، وإنك لم تظهرنا بعدُ على هذا الحديث . ولكن في صفوان حدة وسرعة إلى الغضب ولا سيما حين ينقل عليه الشراب ، فامض في حديثك راشداً ، وأشركنا في هذا المم الذي غير سيرتك منذ الليلة » .
قال صفوان : « ما أدري ماذا عرض لي ؟ فإن حديثك لم يسؤني ولم يؤذني ، وإنما أخذت في الدعابة حين سمعتك تتحدث عن الآلهة ، فما أسرع ما استحالت الدعابة إلى جدّ مرّ ، فامض في حديثك وخذلك ذمّ » .

قال الروي : « أقبلو على شأنكم ، وخذوا في لهوكم ، أو تفرّقوا إلى بيوتكم فقد تقدّم الليل » .

وأحس القوم أن نفس الروي مقسمة بين الغضب والخوف ، فعادوا إلى الرفق به والتلطف له ، حتى ردّوه إلى الأمن والهدوء ، ثم مضوا يسألونه عن حديثه ، ويلحون عليه في أن يتمه .

قال الروي : « أتعرفون أني نصراني ؟ » .

قال صفوان : « نعرف أنك نصراني كغيرك من الروم ، لكننا لم نر منك قط إقبالا على الدين ، ولا إمعاناً في النسك » .
قال الروي : « فاعلموا أني لست نصرانياً ، أو اعلموا أني لم

أخلص^١ للنصرانية قط ، وأنى لم أقدم^٢ على بلدكم هذا النانى البعيد من بلاد الروم لأسقيكم الخمر وأسمعكم الغناء ، وإنما أقبلت إليكم مهاجراً بهذه الوثنية التى كنت أخفيها فى بلادى من أرض الروم ، وأجد فى إخفائها جهداً لا يحتمل ، وعناء لا يطاق^٣ . فلما سمع القوم من حديث الروى عجبوا له ، وشغفت نفوسهم بالقصة فأصغوا أشد الإصغاء .

قال الروى^٤ « إنكم لا تعرفون من أمرنا نحن الروم إلا أقله وأيسره . وإنكم لتجهلون وثنيتنا القديمة كما تجهلون نصرانيتنا الحديثة . ولو قد علمتم من أمرنا أكثر مما تعلقون لكان فهمكم عنى أعمق وأصدق . إن وثنيتنا القديمة ليست من اليسر والسذاجة بحيث ترون ما أنتم عليه من دين ؛ فإن لآلهتنا القدماء أخباراً طوالاً ، وأنباء غريبة ، تكلف بها النفوس ، وتألّفها القلوب ، وتصبو إليها الطباع . وقد كان آلهتنا القدماء أشدّ اختلاطاً بنا ، ومعاشرة لنا ، واشتراكاً معنا فى جد الحياة وهزلها من آلهتكم . فلا جرم تمكّن حبها فى قلوبنا ، واختلط بنفوسنا ، وجرى مع دماننا ، وكانت حاجتنا إليهم كحاجتنا إلى الهواء الذى نتنفسه ، وإلى الطعام الذى نقيم به أودنا ، وإلى الشراب الذى ننقع به الغلة ونبلّ الصدى ، وإلى المعرفة التى نغذو بها عقولنا ، ونزقى بها قلوبنا ، وننقى بها طباعنا من الأوضار والآثام . فلما جاء الدين الحديد ، ضقنا به أشد الضيق ، ونفرنا منه أشد النفور ، وقاومناه أعنف المقاومة وأقساها ، وضحيننا فى سبيل آلهتنا القدماء بكثير جداً من النفوس والدماء والأموال أكثر مما تستطيعون أن

تصوروا . ولكن الإله الحديد كان أقوى من آلهتنا وأعظم سلطاناً ؛ فلم تثبت له الآلهة ، وإنما انهزمت أمامه وفرت من معابدها وهياكلها ، وأذعن أكثرها لهذا الإله الحديد ، ووفى ألقنا لأولئك الآلهة المشردين . وقد نشأت في أسرة من هذه الأسر التي توارثت الوفاء لأولئك الآلهة ، والتي كانت تؤدّي النصرانية لقيصر كما تؤدى له الضريبة التي يفرضها على الأموال ، فإذا خلت إلى نفسها وقت لآلهتها ، وأخلصت لها الدين محتاطة متحرجة ، بالغة من التحرج والاحتياط أقصى ما كانت تستطيع أن تتحمل . ولكن قيصر قد اشتد في دينه . ولم يكتف من رعيته بالطاعة الظاهرة ، وإنما أراد أن يخلص إلى دخائل النفوس وضائر القلوب ، وأن يحاسب الناس على آرائهم كما يحاسبهم على أعمالهم . فلقينا من ذلك جهداً أشد الجهد ، وعتناً أعظم العنت ، حتى تحوّل كثير منا عما كان يضر من حب آلهتنا . وإنا لفي ذلك العناء وإذا أنا أسمع حديثاً عن بلدكم هذا يغريني به ويدفعني إليه ، ويخيل إلى أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد الروم إلى العرب ، فأقاموا فيها ، وفرغوا لأهلها يبسطون عليهم من سلطانهم العذب ما كانوا يبسطونه على الروم » .

قال صفوان : « وما ذاك الحديث ؟ » .

قال الرومي : « حديث ذلك الجيش النصراني الحبشي الذي أقبل على بلدكم هذا ليهدمه ويدمره ، مقدماً بين يديه فيله العظيم . فما كاد يدنو من حرمكم هذا حتى رُدّ عنه أقبج الرد وأشنعه ، وحتى سلطت عليه تلك الطير التي مزقته تمزيقاً » .

قال صفوان : « فإن رب الحرم قد ذاد العدو عن الحرم ، ما نجد في ذلك غرابة ولا عجباً » .

قال الرومي : « أما نحن فقد وجدنا فيه الغرابة كل الغرابة ، والعجب كل العجب ، وأولناه ألواناً من التأويل . فأما رهباننا وأخبارنا فقد فهموا منه شيئاً آخر . ظن الأحبار والرهبان أن هذه آية قدمتها السماء بين يدي آيات أخرى أكبر منها وأعظم خطراً . وظن الأحبار والرهبان أن أمور الناس ستتغير وتبديل ، وأن ما أنزل على اليهود والنصارى من الدين سيتم في هذا البلد الذي رُدَّ عنه القيل . وظننا نحن كما قلت لكم أن آهتنا قد هاجروا إلى هذا البلد ، وأنهم قد ردّوا جيش الحبشة والروم عنه ، كما ردوا جيش الفرس عن بلاد اليونان منذ قرون . وتمتلى نفسى بحب الآلهة ، وتطمئن نفسى إلى هذا التأويل ، وتحديثى نفسى بالهجرة إلى بلادكم لألقى فيها آهتنا ، ولأرى فيها تماثيلهم ، ولأعبدهم حرّاً ، وأتقرب إليهم ، مظهراً ذلك لامستخفياً به ولا محتاطاً فيه . وأفكر في الرحلة إلى هذه الأرض ، وفي الحياة التي سأحياها في هذا البلد ، وفي رزقي كيف أكسبه . فاتصل بالذين كانوا يفدون على بلادنا من تجاركم ، فأعلم منهم علم هذه البلاد ومن يعيش فيها من الناس ، وأقدم مع بعض قوافلكم تاجراً أسقيكم خمر الروم ، وأسمعكم غناء الروم . وإن لي في بلادكم لأرباً غير هذا وذاك . وما أخفى عليكم أني لم أبلغ بلادكم ولم أستقر في أرضكم حتى أدركتني خيبة الأمل ، وحتى جعلت نفسى تحدثني بأن الأحبار والرهبان ربما كانوا أدنى مني إلى الحق ، وأقرب مني إلى الصواب ؛

فقد رأيت تماثيل آلهتكم ، ورأيت سيرتهم فيكم وسيرتكم فيهم ، فلم أعرف من هذا كله شيئاً ، ولم تعطف نفسى على صنم من هذه الأصنام القائمة ، ولم يعل قلبي إلى وثن من هذه الأثان المنصوبة ، ولم يرتب ضميرى فى أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد اليونان لا ليستقروا فى بلاد العرب ، ولكنهم مضوا إلى وجه من الأرض أو من السماء لا نعرفه ولا نهتدى إليه .

هنالك أخفيت أمرى فى مكة كما كنت أخفيه فى طرسوس ، وأظهرت لكم نصرانيتى هذه الرقيقة كما كنت أظهرها فى أرض قيصر ، وفرغت للتجارة واستثمار المال ، فجعلت أسقيكم الخمر ، وأسمعكم الغناء ، وأفيد منكم مالا كثيراً . ولكنكم أخذتم منذ حين فى هدم بيتكم هذا وتجديد بنائه ، فكان ذلك مصدر ما أنا فيه من الاضطراب .

قال صفوان : « وما ذاك ؟ » .

قال الرومى : « ألم تفكروا فى أصنامكم هذه القائمة حول هذا البيت والمسندة إليه ما عسى أن تصنعوا بها أثناء الهدم والبناء ؟ ! » .

هنالك نظر بعض القوم إلى بعض نظرة لا تخلو من معنى .

وقال صفوان : « وماذا كنت تريد أن نصنع بها غير ما صنعنا ؟ ! » .

قال الرومى : « لم أكن أريد شيئاً ، وإنما كنت أنتظر » .

قال صفوان : « كنت تنتظر كما كنا ننتظر أن تتحول الآلهة عن أماكنها ، وأن تبهرننا بانتقالها إلى حيث تأمن معاول الهادمين . ولكن الآلهة لم تتحول فحولناها ، ولم تنتقل فنقلناها . وإذا تم البناء فسرود ما نقلناه منها إلى أماكنها الأولى . فإذا تنكر من ذلك ؟ ! إنا لم ننكر منه شيئاً » .

قال الروي : « فقد كنتم تنتظرون من الآلهة مثل ما كنت أنتظر ؟ » .
قال صفوان ضاحكاً : « ولكن الآلهة لم تحقق آمالنا ، ولم تفعل
ما كنا ننتظر منها . أفنكره الآلهة على ما لا تريد ! يا غلام ! قد
جفت حلوقنا فاملأ الأقداح » .

ثم التفت إلى الروي وهو يقول : « إنك لتعنى نفسك بأيسر
الأمر وأهونه . إن أخص ما يميز الآلهة أنهم يفعلون ما يريدون هم
لا ما نريد نحن » .

قال الروي : « ولكنهم لم يفعلوا شيئاً » .
قال صفوان : « فن حقهم ألا يفعلوا ، كما أن من حقهم
أن يفعلوا » .

قال الروي : « فإذا أتممت بناءكم وبدا لكم الأتردوا آهتكم إلى
أماكنها أفرها تترد إليها على رغمكم ؟ » .

قال صفوان : « ما أدري وما يعينني من ذلك شيء » . انتظر
حتى يتم البناء ؛ فإن رأيت الآلهة قد ارتدت من تلقاء نفسها إلى
أماكنها فقد ظهرت لك جلية الأمر . وإن رأيتنا نحن نردها إلى
أماكنها كما حولناها عنها فاعلم أنها قد أخذتنا بذلك وأرادتنا عليه .
وإن رأيتها قائمة حيث وضعناها ورأيتنا نتركها حيث هي فاعلم أنها
تريد ذلك ، وتطمئن إلى أماكنها الجديدة . وأرج نفسك كما نريح
أنفسنا من التفكير في الآلهة ، واشغل نفسك كما نشغل أنفسنا عن
أمور الآلهة بأمور الناس ، وعن حركات الآلهة بحركات هؤلاء الإماء
الثلاث اللاتي يوقعن ويغنين فيكلفننا من أمرنا شططاً » .

وتفرّق هؤلاء الفتيان من قريش عن صاحبهم الرومي آخر الليل ،
وإن بعضهم ليقول لبعض : ويلكم ! لقد فطن هذا الرومي لما فطنتم
له . ولئن جاز لنا نحن أن نشك في آلتنا أو نسخر منها ، فما ينبغي
أن يجوز ذلك لرومي يسقينا الخمر ويسمعنا الغناء . ويلكم ! ارفعوا
ذلك إلى الملأ من قريش ! ليذبوا أمرهم وأمر الآلهة ! فإنه في حاجة
إلى التدبير ، وليحتاطوا أن يشيع هذا الشك في عامة الناس وضعفائهم ،
وفي هؤلاء الأجانب الذين يملثون مكة من الفرس والحبش والروم .
ولكنهم راحوا على صاحبهم الرومي من الغد ليستأنفوا عنده لهوهم
ولذتهم ؛ فلم يجدوه ولم يجدوا إمامه الثلاث ، وإنما وجدوا حانوتاً خالياً
إلا من دنان وزقاق كان فيها فضل من شراب .

واستقر حديث الروى في نفوس هؤلاء الفتيان ، وما أدرى أتحدثوا به إلى الملائ من قريش أم أخضوه عليهم ، ولكنهم لم ينسوه على كل حال ، وإنما جعلوا ينتظرون أن يتم بناء البيت ، ويتساءلون إذا التقوا - كما يسأل كل واحد منهم نفسه منفرداً - : ماذا عسى أن يصنع الآلهة ليعودوا إلى أماكنهم ؟ أيسعون إلى هذه الأماكن ليستقروا فيها ، أم يتقلون إلى هذه الأماكن محمولين على الأيدي والأعناق كما حوّلوا عنها محمولين على الأيدي والأعناق حين أخذت قريش في هدم البيت ؟

وليس من شك في أن الملائ من قريش قد فكروا في هذا الأمر كما فكر فيه الشباب ، وانتظروا من الآلهة مثل ما انتظر الشباب . ولكن شيوخ قريش كانوا أمكر وأمهر من أن يظهروا من تفكيرهم شيئاً . وكانوا أضبط لأمورهم وأملك لعواطفهم من أن يظهروا الشباب وضعاف الناس على ما خالط قلوبهم من ريب ، وشاع في نفوسهم من شك ، حين رأوا آلهتهم يتقلون كما ينقل المتاع ، ويرصدون في أماكنهم الجديدة كما يرصد الأثاث . ومهما يكن من شيء فقد آتمت قريش بناء البيت ، وانتظرت بالآلهة يوماً ويوماً ، فلما لم تجد منها إرادة ولا حركة ولا تحولا إلى أماكنها ردتها إلى تلك الأماكن رداً ، وحلتها إليها حملاً . واستقر في نفوس الشيوخ والشباب شك عظيم .

وربما ظهر الأمر ببعض أولئك الشيوخ والشباب إلى ما هو أبعد من الشك والريب ، وأدنى إلى الجحود والإنكار .

ولكن محنة قريش في آلهتها لم تقف عند هذا الحد الذي قد يفتن له أذكيا القلوب ، وأصحاب العقول النافذة والأحلام الراجحة ، ولكنه يمتد إلى عادة على الدهماء ويحلّ عن أن تعرفه عامة الناس ، وإنما جاوزته إلى شيء خطير رأت فيه قريش خطباً عظيماً واقتضاحاً منكراً لما لم يكن ينبغي أن يفتضح من أمر الآلهة . فقد أسندت قريش من آلهتها إلى البيت ما أسندت ، وأقامت قريش من آلهتها حول البيت ما أقامت ، وخيل إليها أن قد فرغت من هذا الجهد الشاق ، وخلصت من هذا العناء الثقيل . ثم اجتهد الأشراف والسادة في أن شغلوا عامة الناس ودهمهم عن التفكير في جمود الآلهة وقصورهم ، فأقاموا الأعياد ، وأكثروا من التقريب للآلهة ، وأسرفوا في أموالهم ليطعموا الفقراء والبائسين ، وألحوا في ذلك وقاموا عليه حتى تجاوز كرمهم أهل مكة إلى من كان يضرب حولها من الأعراب الذين جعلوا يقدمون على مكة ، يلتمسون فيها حظوظهم من هذه الإبل والشاة التي كانت تقرب إلى الآلهة في غير انقطاع . ولكن قريشاً تصبح ذات يوم فتغدو على البيت فترى ، وباهول ما ترى ! ترى آلهتها مجدّلين قد صرّعوا حول البيت تصرّيعاً ، منهم المستلقى على ظهره ، ومنهم المنكبّ على وجهه ، ومنهم المضطجع على أحد جبيه . وما أصف لك شيئاً مما ملأ قلوب قريش من الروع والهلع ! فأنت قادر على تصور ذلك إذا قدّرت إعظام العامة لآلهتها ، وحرص

الخاصة على ما ينبغي لهؤلاء الآلهة من جلال وقار .
وتقبل قريش على آلهتها فتردّهم إلى أمّاكنهم ، وتقرّهم في مواضعهم ،
ثم تستشير وتستخير وتدبر بينها ألوان الرأي ، ثم يستقر الأمر بينها
على أن الآلهة لم يرضوا بعدُ عثمانجر لهم من ضحايا وما سفك حولهم من
دماء . فتستأنف قريش ما كانت قد أخذت تعرض عنه من التضحية
والتقريب ، وهذه الإبل تنحر ، وهذه الشاء تذبح ، وهؤلاء الفقراء
ينعمون بعيش رغد وسعة متصلة . ولكن قريشاً تصبح من الغد فإذا
آلهتها مجدّون حول البيت ، قد فعلت بهم الأفاعيل !
ويعظم لذلك همّ قريش ، وتمتليّ لذلك قلوب قريش حزناً وأسى ،
منهم الصادق المخلص ، ومنهم المشفق الماكر ، ولكنهم على كل حال
يقيمون الأصنام ، ويجددون التضحية ، ويستشيرون الكهان ويجدّون
في البحث والاستقصاء ، لعل في مكة قرماً يمحرون بالآلهة ، ويدبرون
للحرم وأهله كيداً . وقد أقاموا الحراس حول البيت أثناء النهار ، فلم
ير الحراس شيئاً ينكرونه . وأقاموا الحراس حول البيت أثناء الليل ،
فقاموا حذرين أيقاظاً ينتظرون ، ولكن انتظارهم لم يطل وإنما هو
انصاف الليل وتقدمه بعد ذلك شيئاً ، وإذا بضجيج يُسمع ،
وأصوات تفرع الآذان . وينظر الحراس فيرون - ويا هول ما يرون ! -
الآلهة وقد صرّعوا حول البيت تصرّيعاً ، فيفرون وقد ملكهم الخوف
واستأثر بهم الفزع .

وقد أشار الكهان على قريش بأمر عظيم وقفت له القلوب فما
تحقق ، وجمدت له الدماء فما تجرى ، ووجعت له النفوس فما تستطيع

روية ولا تفكيراً ، وهلعت له النساء في البيوت ، وأشفق منه سكان مكة جميعاً إشفاقاً عظيماً ! فقد زعم الكهان لقريش أن لحوم الإبل والشاء ودماء الإبل والشاء ما كانت لترضى الآلهة بعد أن حولت عن أماكنها ، وبعد أن هدم بيئها وأعيد بناؤه ! ولا بدّ من أن يقرب إلى الآلهة لون آخر من القربان يقنعهم بأن عبادهم من قريش لا يجودون عليهم بالأموال وحدها ، وإنما يتقربون إليهم بالأنفس أيضاً . وقال الكهان لقريش : يجب أن تقربوا لآلهتكم من أجيالكم الثلاثة رجلاً وامرأة قد تقدمت بهما السن حتى أشرفا على الموت ، وفقى في نضرة الشباب ، وصيباً وصيبة من الأحداث . فإن لم تفعلوا فما ندرى ماذا يصنع الآلهة ؛ فإنهم لم يفعلوا إلى الآن أكثر من أن قلموا إليكم النذر ، فأسرعوا إلى إرضائهم ! فإننا نخشى أن تسوء العاقبة ، وأن تصبحوا فلا تروا آلهتكم بينكم ، وألا تمضى بعد خروجهم عنكم أيام حتى يسلط عليكم شر عظيم . ولو استمع الملأ من قريش لما كانت تضطرب به نفوس الدهماء وعامة الناس لأطاعوا أمر الكهان ، ولتقربوا إلى آلهتهم بهذا الإثم المنكر . ولكن الملأ من قريش كانوا أمكر من ذلك وأمهز ، وكانوا أحزم من ذلك وأعزم ! فقد خلصوا نجياً ذات ليلة في دار نذوتهم ، وجعلوا يتشاورون ويدبرون أمرهم بينهم . وليس من شك في أنهم قد تلاوموا وتلاحوا ، وألقى بعضهم على بعض تبعه ما كان من هدم البيت وتجديد البناء ، ولكنهم كانوا مجمعين أمرهم على ألا يدعنوا لما يأخذهم به الكهان ، ولا يقدّموا إلى آلهتهم أبناءهم وبناتهم وأن أمر الآلهة في نفوس هؤلاء الشيوخ

الذين عركهم التجارب لأهون من ذلك وأيسر . ولكن الملائم من قريش ينظرون فإذا بينهم رجل غريب ينكرونه ، ثم لا يلبثون أن يعرفوه ، شيخ قد تقدمت به السن ، واتخذ زى النجديين ، لم يكن بينهم حين اجتمعوا ولكنه ظهر فيهم فجأة ، لا يدرون من أين أقبل وهم قد أقاموا على الباب حراساً يمنعون أن يقتحمه أحد أو يدنو منه أحد . ولكنهم يذكرون أنهم قد رأوا هذا الشيخ النجدي ذات يوم حين أمضى الأمين حكمه فيهم ، وحين وضع الأمين الركن الأسود في موضعه من البيت . رأوه يريد أن يشارك في البناء فيردّ عن ذلك رداً عنيفاً ، فيظهر السخط ويعلن النذير ، ثم يستخفي فلا يظهرون له على أثر . فلما رأوه من تلك الليلة أقبلوا عليه يسألونه من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون ؟ فلا يرد على سؤلهم هذا جواباً ، وإنما يقول لهم في صوت نحيف بعيد : « لقد أخذت النار تتحقق يا معشر قريش . ألم أنهكم عن أن تحكموا بينكم رجلاً كان أصغركم سنّاً ، وأقلكم مالا ، وأشدكم إعراضاً عن آهنتكم ، وأبعدكم من الاحتفاء بهم والإكرام لهم ! فقد أيتّم إلا أن تفعلوا ، وغضبت الآلهة مما فعلتم . وما أرى أن أموركم تستقيم إلا إذا تقضتم بناءكم شيئاً ، فأخرجتم الركن من موضعه ، ثم رددتموه إليه بعد أن تضحوا لآهنتكم بمن أمركم الكهان أن تضحوا بهم . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الآلهة ، لا قبيل لكم بها ولا قدرة لكم عليها . والخير يا معشر قريش أن تريحوا أنفسكم من هذا الأمين ، فإنكم إن أبقيت عليه لم يبق عليكم ، وإن مددتم حياته لم يلبث أن يجذم حياتكم جذماً » .

ويسمع الملائمة من قريش حديث هذا الشيخ مرتاعين له ، حتى إذا انقطع الصوت وهموا أن يحاوروا صاحبه نظروا فلم يجدوه بينهم ، وكأنه لم يدخل عليهم ولم يتحدث إليهم .

هنالك تمتلئ قلوب القوم حيرة ، ويكادون يصرفون عما كانوا فيه إلى السؤال عن هذا الشيخ : من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون ولكن الوليد بن المغيرة يقول في صوت هادي مطمئن : « ويحكم يا معشر قريش ! ما أرى إلا أن الشيطان يريد أن يعثب بكم ، ويصرفكم عما ألقم واما ألف الناس فيكم من الخزم والعزم ، ومن الأناة والوقار . إنه الشيطان يا معشر قريش ، ما أشك في ذلك ! إنه قد ظهر بينكم ثم استخفى عليكم . وإنه قد أذركم بالشر ، ودعاكم إلى أمر فظيع . رأيتمكم يا معشر قريش إن أخرجتم الركن عن موضعه ، تستطيعون أن تردوه دون أن يشجر بينكم الخلاف ، وتستيقظ فيكم الفتنة ، وينصب بعضكم لبعض الحرب ، ويدعو بعضكم بعضاً إلى القتال ؟ هل أنتم يا معشر قريش إن استمعتم لهذا المشير الخائن ، والنصيح الغاش ، فبطشتم بالأمين أو حاولتم البطش به ، إلا مضيعون للحق ، مهدرون للرحمة قاطعون للرحم ، تجزون الخير بالشر ، والمعروف بالمتكر ! فقد حقن الأمين دماءكم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تهدروا دمه . وقد أقر الأمين فيكم السلم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تثيروا بينكم وبين قومكم الحرب . لا والله ما ذلكم هذا الشيطان إلا على الغي ، ولا دعاكم إلا إلى الإثم . ردوا عليكم فضل أحلامكم ، ولا تكبروا من أمر هذه الأحجار غير كبير . إني والله ما أراها كلها تعدل قطرة من هذه

الدماء التي تترادون على أن تسفكوها . أرى أسرة من أسر قريش تريدون أن تفجعوها في كبيرها أو صغيرها ؟ ! أيكم تطيب نفسه يا معشر قريش عن هذه التضحية بابنه أو بنته ، وبأبيه أو أمه ؟ ! إنكم لم تنسوا بعد قصة عبد المطلب وابنه عبد الله ، لقد كدتم تبطشون به ، لأنه كان يابى إلا أن يضحى بابنه للآلهة . فإنكم لا تترادون الآن على أن تضحوا بواحد من قريش ، وإنما تترادون على أن تضحوا بستة من خيركم . لا تسمعوا لهذا اللغو ! وأمر هذه الأحجار أيسر عليكم وأهون في نفوسكم مما تظنون ، وما يخيل إليكم الشيطان » . قال أمية بن خلف : « مهلاً يا وليد ! إنك لتقول الحق ، وتدعو إلى الرشد . ولكن خفض من صوتك ، ولنكنم على الناس هذا الحديث ! فإنه إن ذاع لم ينتج لنا إلا شراً ، والأمر بعد ذلك في حاجة إلى التدبير . فما ينبغي أن يروح الناس عن آلهتهم وهم قائمون ، ثم يغدوا عليهم وهم مجدّون » .

قال الوليد : « ما أرى إلا أن هذا الشيطان يعيث بنا وبهذه الأحجار ، يتخذها أسباباً ووسائل لكيد يدبره ، وشر يقدره . يقيمها أثناء النهار ، وينيمها إذا جنّ الليل » . قال أمية : « فاقترح علينا وسيلة نخلص بها من كيد الشيطان ، ونذكر بها الآلهة على أن يظلوا ويبيتوا كما عرفهم الناس قائمين ، غير قائمين ولا مجدّين » .

قال الوليد : « كلوا إلى أمر هؤلاء الآلهة ، فعلى أن أجد لكم منه مخرجاً . وتفرق الملاء من قريش وهم لا يدرون ماذا يريد الوليد أن يصنع .

ولكن الوليد غدا على ذلك البناء القبطى الذى أقام لهم البيت ،
فاستشاره فى ذلك ، وأفضى إليه برأيه جليبا صريحاً فى هذه الأحجار .
فلما سمع منه « باخوم » أطرق شيئاً ، ثم قال مبتهمياً : « هلا صنعتم
بأهتكم ما نصنع نحن بما نريد تثبيته من البناء ! » .

قال الوليد : « وما ذاك ؟ » .

قال باخوم وهو لا يملك نفسه من الضحك : « شدوا أهتكم
إلى أماكنها بأسباب من الرصاص » .

قال الوليد : « هو ذاك ! » .

والغريب أن أصنام قريش ثبتت فى أماكنها واستقرت فى
مواضعها بعد هذه الحيلة ، وعجزت عن أن تخلص من قيودها
الرصاصية تلك ، فلم ترها قريش بعد ذلك إلا قائمة مكانها ، حتى
كان يوم من الأيام رأتها فيه وقد حطمت تحطيماً .

قال ابن هشام : وحدثني من أتق به من أهل الرواية فى إسناد
له عن ابن شهاب الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ،
قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على
راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ،
فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام
ويقول : « جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . فإشار
إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع إلى قفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع
لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك :
وفى الأصنام معتبرٌ وعلمٌ لمن يرجو الثواب أو العقابا